وتفهمنا مؤدى ذلك .. انتهينا منه الى تصوير هذا الادب فى معظم حالاته ذنبا وراء السياسات لاصقا بأعجازها ، او عبدا لها قنا ، مجرورا ابدا بخطمها ، ومصرفا بهراواتها ، او محبوسا على الخسف بأجرتها، كما تريد له ، لا كما يريد ، دون أن تكون له فى نفسه قوة يمتنع بها عن قبول هذه التبعية الذليلة ، او هوى فى التمرد على توجيهاتها له وسيطرتها له على حريته .

وانى يكون ادب ـ تستقيم له حياة وترتقي به لغة ـ حين يكون هذا شأنه من التبعية الذليلة وفقدان الحرية ؟ وهل عرف الادب العربي الاصيل منطلقا له من غير هذه الحرية ؟ وهل تنفس الا من جوائها الطلقة نواسمها الصافية المنعشة للارواح والاكباد ، والباعثة القوة والنشاط فى عروقه ؟

نخلص من هذا الى اننا نجد انفسنا من هذا المذهب بازاء قانون خاص ان صلح لكتابة تاريخ عام به لاداب هذه الوحدات الاوربية الصغيرة ، فان التجارب فى تطبيقه فى تدوين تاريخ ادبنا ، قد انتهت بنا ولا ريب الى الاخفاق فى ابراز قسماته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة ، وتوضيح اصالته وهي تعلو على الخلاف والشبهات .

فلا مندوحة لنا اذن من اطراحه وتركه الا ما فيه من مسحة التفكير والتنظيم ونحوهما ، ومن التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقق صورته الصحيحة على وجه افضل واكمل واصدق .

فما هذا القانون الجديد الذي ادعو الى التماسه؟ ما روحه ؟ وما طبيعته ؟ وأين نلتمسه ؟

بديهي أن ادب كل امة تحكمه قوانين لغتها ، وروحها المفرغ فى هذا الادب ، قبل ان تحكمه المؤثرات الخارجية ، وكل ادب اصيل كالادب العربي ـ يستمد وجوده واستمراره من روح الامة بعيدا عن التقليد والمحاكاة لاي ادب كان ـ يتميز عادة ، بشخصية قوية، قوامها الوضوح والصدق ، وبلاغها التأثير والابداع .

واللغة العربية ـ وهي وعاء العقل العربي ومبدعاته ـ تتميز بخصائص نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها خلال الآماد التي اجتازتها من لدن ولدت مع العرب الى أن بلغت بهم كمال نضجها ، واستوت فى أروع صورها البلاغية التي مثلت الاعجاز فى القرءان الكريم ، فعلت بذلك على مجرد « التعبير عن المقاصد » كما يقال فى تعريف اللغات ، وانتهت بهذه الخصائص الى تحمل معاني الوجود ومبدعات العقول .

ولن يختلف عالمان فى أنها **تميزت من هذه الخصائص أولا بهيآتها وموازينها وقوانين اشتقاقها ، وتميزت ثانيا بكمال مخارج حروفها مهموسة أو مجهورة ، وبروعة موسيقاها وحلاوة نغمها ودقة جرسها ، وتميزت ثالثا بهذا الفيض الغزير من مادتها وفرط غناها من الالفاظ الموضوعة بازاء مختلف المعاني وأدق الفروق** . وهي بكل اولئك تسلس ـ فى طواعية تامة ـ قياد التعبير عن التشكلات التي تعرض للنفس الانسانية فى المنشط والمكره وشتى الاحوال ، وتساوق اغراضها ، وتتلون بألوانها جميعا ، فتلين وتعذب حتى لكأنها لا تعرف غير اللين والعذوبة فى مثل الغزل والحنين والمواجد والاشواق، وتشتد وتصلب فى مواطن العنف القوة ، فتبدو وكأن الفاظها وجملها قد قبست من لهب النار ، أو قدت من معادن الحديد ... وهي فى هذا وغيره ، تجري دائما على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل فى صميمه ، وهكذا **تتشكل باشكال الاشياء ، وتبرز مع كل حالة موقعة بايقاعها وحركة روحها توافقا وانسجاما** كما تتناسق وتتوافق فى الرقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق « الصفاقات » أو نقرات اليد على « الطار » بحساب .

ولست ادري اكان ابن حمديس ـ شاعر صقلية ـ لمح فى راقصته خاصية اللغة العربية هذه فى توافق ايقاعها ، ام لمح فى اللغة العربية خاصية رقص الراقصة فى توافق لقطات رجلها ونقرات الطار ... حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها
حساب يد نقرت طارها ؟

هذه واحدة .

واخرى ان اللغة العربية ـ الى هذه الخاصية الرائعة بكل أوصافها وسماتها ـ تمتاز بشيء أكبر من هذا ...

تمتاز بالشحنات النفسية ، وطاقات الحياة النامية التي تعمل فى باطنها دائما فتغذيها وتقويها ، وتمنحها القدرة البالغة فى التأثير والابداع .

ذلك بما افرغته الامة العربية فيها ، فى آمادها الطويلة ، من قوة روحها ، ورهافة حسها ، ووقدة شعورها ، وحركة خيالها ، وعمق تصورها ، وسعة حريتها المكتسبة من طبيعة الصحراء ولانهاية الفضاء ، وما الى ذلك وغيره من اخلاق ومعان وتجارب ، ومن **مثل انسانية رفيعة ونبيلة افرغها كتاب الدعوة الاسلامية المعجز ، وادب النبوة الحي ـ وهما المثلان**